

الحرب الروسية على أوكرانيا: أسباب جيوسياسية وارتدادات مستقبلية

ثمة أحداث وحروب في العالم تكون محطة مفصلية ونقطة تحول حاسمة، تؤدي الى تغيير جذري في المسار الدولي ومجري التاريخ. قبل عشرين عاما شهدنا مثل هذا النوع من الاحداث عندما تعرضت الولايات المتحدة لهجمات 11 ايلول 2001، وتلا ذلك تحول جذري في سياستها الخارجية، لتصبح سياسة هجومية ويحصل غزو عسكري لافغانستان



الرئيس الروسي فلاديمير بوتين.

بعدها قامت بغزو العراق، ورزح العالم لعقدين تحت ارتدادات هذا الغزو المزدوج ووطأته، قبل ان تتلاشى هذه المرحلة في الامس القريب مع انسحاب اميركا من افغانستان كمقدمة لانسحابها لاحقا من العراق وسوريا بعد الوصول الى اتفاق نووي مع ايران. هذا كان المسار قبل حرب اوكرانيا، لكن بعدها سيتغير كل شيء.

اذا كانت هجمات 11 ايلول وما تلاها رسمت قواعد جديدة لصراع النفوذ ولنظام امني جديد في العالم لمدة عشرين عاما، فان حرب اوكرانيا والغزو الروسي لها سترسم ولسنوات مقبلة قواعد جديدة للصراع الدولي ولحرب باردة جديدة انطلاقا من اوروبا.

الرئيس الروسي فلاديمير بوتين هو من اتخذ قرار الحرب. قرار كبير صعب ومكلف. في نظر البعض، هو اخذ هذا القرار عن سابق تصور وتصميم في سياق خطة توسعية متدرجة بدأها في جورجيا عام 2008، واكملها في شبه جزيرة القرم عام 2014، ووسع اطرافها منذ سنتين بالتمدد بطرق مختلفة في اتجاه دول اسيا الوسطى الاسلامية السوفياتية سابقا، مثل اذربيجان وكازاخستان. هو اخذ قرار الحرب واعتمدها خيارا لفرض شروطه بالقوة العسكرية بعدما اخفق في فرضها بالطرق الدبلوماسية والسياسية. وهذه الشروط واضحة ومحددة في نزع سلاح اوكرانيا وعلان حيادها بعد اجتثاث "النازية" منها، وفي منع التحاقها بحلف شمال الاطلسي، واخراج البنى التحتية الاطلسية من دول شرق اوروبا واعادة الوضع الى ما كان عليه قبل العام 1997، لأن حلف الاطلسي لم يعد له من مبرر بعد سقوط حلف وارسو. في نظر آخرين، سقط بوتين في

الفخ الاوكراني ووقع في مصيدة الحرب، ونجح الاميركيون في لعبة الاستدراج بعدما تعمدوا رفض مطالبه واستفرازه، ولم يفعلوا شيئا لتهدئته وطمأنته ولحل النزاع. سواء امتلك بوتين ارادة الحرب وسار اليها بعيون مفتوحة، ام دفع اليها وجرى توريثه فيها، فان من المهم من الان فصاعدا التعاطي مع الوضع الجديد وواقع الحرب والنتائج والتغيرات الناجمة عنها. وسيكتشف بوتين انه اخطأ في التقدير ولم يكن يتوقع مقاومة اوكرانية شرسة ودعما غربيا اطلسيا مفتوحا، وحصارا اقتصاديا وعزلة دولية. وسيكتشف الغرب ايضا انه في "ورطة"، وان بوتين جره الى وضع لم يكن يتصوره والى حرب لا يمكن التحكم بمخاطرها ومفاجأتها.

لكن رغم ان الالم حاليا هو ما بعد الحرب وما بعد اوكرانيا، يبقى من المهم العودة الى ما قبل الحرب والبحث عن الاسباب التي دفعت بوتين الى اعلان الحرب على اوكرانيا. لماذا ذهب بوتين الى هذا الخيار الكبير والمكلف، وكيف يبرر قراره؟

تبدأ القصة او المشكلة مع انهيار الاتحاد السوفياتي في نهاية عام 1991 عندما استقلت جمهوريات عدة منها اوكرانيا. وبدا واضحا منذ بداية الاستقلال ان هناك تشابك مصالح بين اوكرانيا وروسيا، مما جعل الاستقلال الكامل امرا صعبا. فهناك القاعدة البحرية الروسية في شبه جزيرة القرم، وهي قاعدة وحيدة للروس على البحر الاسود والتخلي عنها يفقد روسيا الكثير من قوة اسطولها البحري ومقدرته على

الوصول الى المياه الدافئة. من ناحية اخرى هناك مجموعات سكانية روسية كبيرة في القرم ومنطقتها على الحدود الروسية - الاوكرانية في دونيتسك ولوغانسك تحديدا ترفض البقاء ضمن اوكرانيا وتطالب بالانضمام الى روسيا الام، مما يعطي الذريعة لتدخل عسكري يحمي تلك المجموعات ويدعم استقلالها عن اوكرانيا لتكون خط دفاع متقدما لروسيا. اخيرا وليس آخرا، هناك الغاز الروسي الذي يمر 80% منه عبر اوكرانيا الى اوروبا ويشكل ثلاثة ارباع دخل شركة الغاز الروسية الرئيسية "غازبروم".

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وسنوات عجاف مع بوريس يلتسين، بدأ صعود نجم فلاديمير بوتين كعراق او مهندس لمشروع عودة روسيا الى الساحة الدولية وتثبيت موقعها الجيو-سياسي كقوة اقليمية كبرى. فالواجهة المحدودة في جورجيا عام 2008 كانت ستفضي حكما، ولو بعد سنوات من وقوعها، الى مواجهة اكبر مع دولة ليس فقط اكبر من جورجيا من حيث المساحة وعدد السكان وحجم التأثير، بل ايضا تجمعها مع الغرب صلات اعمق، الى درجة اعتبارها اهم حليف له بين دول الاتحاد السوفياتي السابق.

تطلب الامر سنوات لامتلاك الادوات والقدرات في مشروع استعادة النفوذ الكبير



بوتين مصمم على تحقيق اهدافه بالحرب او بالمفاوضات



الذي كان يحظى به الاتحاد السوفياتي، وامكانات المواجهة مع الغرب. تطلب الامر الوقت والجهد كي يصل بوتين الى استعادة شبه جزيرة القرم من اوكرانيا من دون رد فعل يذكر، وكي يتمكن من تحقيق العودة الى التأثير في اروقة المؤسسات الدولية، وادارته جهودا كبرى للتشبيك، اقتصاديا وسياسيا واستراتيجيا، مع الصين والدول الصاعدة. جاء صعود المحور الصيني - الايراني - الروسي لتحدي النظام الدولي بعد الحرب الباردة كأهم تطور جيو-سياسي. فجميع مكونات هذا المحور تسير مع بعضها البعض بشكل متناغم لخدمة هدف واحد وهو افشال الاستراتيجية الاميركية كل في نطاقه. على الرغم من التنافس الجيو-سياسي المحموم في سوريا وليبيا، وفي عموم دول المشرق العربي،



اوكرانيا تحت الحرب الروسية.

تمكنت موسكو من استيعاب تراجعها في ليبيا، والتقدم مجددا الى واجهة التأثير الدولي في سوريا. فحسبت، عبر مشاركتها في الحرب بدءا من ايلول 2015، مع حلفائها في ايران وسوريا والمنظمات الحليفة، الحرب لمصلحة خيارها الكبير هناك. لقد تم حسم المسار العسكري بصورة لا تقبل العودة الى الوراء، الامر الذي يعد نجاحا لاستراتيجية الامن القومي الروسي.

تنتمي شعوب روسيا واوكرانيا وبيلاروسيا (روسيا البيضاء) الى الشعوب السلافية، وهي مجموعة صغيرة من الشعوب الموجودة في اوروبا بشكل رئيسي. وتتركز هذه الشعوب في القارة الاوروبية العجوز، في شرق القارة وجنوبها جغرافيا. عادة ما يتم تقسيم الشعوب السلافية الى سلافيين شرقيين، وينتمي الى هذه المجموعة بشكل اساسي الروس والاوكرانيون والبيلاروس. هناك السلاف الغربيون، وينتمي الى تلك المجموعة التشيك والسلوفاك والبولنديون. وهناك السلاف الجنوبيون الذين ينتمي اليهم كل من الصرب والكروات والمقدونيين ومواطني الجبل الاسود والسلوفينين والبوسنيين. ولقد شكلت هذه المجموع السلافية نواة فكرة القوة المؤثرة للاتحاد السوفياتي في قلب اوروبا بعد الحرب العالمية الثانية مع دخولها الى تشكيلات متجانسة تحت الغطاء السوفياتي الذي كانت تقوده روسيا بنفسها. لعل تلك الخلفية تفسر الى حد ما الرغبة الجامحة التي تهيمن على تفكير الرئيس الروسي فلاديمير بوتين في تعامله مع اوكرانيا التي يعتبرها فصيلا متمردا على الامة السلافية، وخصوصا تلك التي تجاور روسيا نفسها.

هناك رغبات جامحة لدى الرئيس بوتين في صناعة تاريخ جديد لروسيا والشعوب السلافية، ويعتقد انه لديه فرصة سانحة الان لعمل شيء ما رغم هشاشة وضعه الاقتصادي مقارنة بالصين والولايات المتحدة والمعسكر الغربي باسره. قد تكون روسيا الرجل المريض في المعادلة السياسية العالمية اليوم، لكن الرجل المريض بسلاح نووي ومدجج به يكون دائما هو الاخطر في حالة الفوضى العالمية. هذا هو العالم الذي يرغب في السيطرة عليه بوتين، وان ◀

◀ يترك بصمته عليه نصره للشعوب السلافية ولروسيا الام.

بوتين التي ستحدد مسيرته الازمة الحالية مع اوكرانيا وبين روسيا والمعسكر الغربي باكملة، مقتنع بأن هذه فرصة محددة نادرة وفريدة من نوعها له لاثبات حضوره على الساحة الدولية، وسط التصاعد الخطير والامتامي للقوة الصينية وهيمنة اميركا على المشهد العالمي. ويرى في ما يحدث اليوم من ازمة عالمية بسبب جائحة كوفيد - 19 وانشغال العالم بازمة المناخ العالمي وتداعيات الوضع الاقتصادي والصراعات المتصاعدة في مناطق مختلفة حول العالم، فرصة ذهبية لفرض نوع من الواقع السياسي على الخلفية الفوضوية الحاصلة في العالم اليوم. روسيا الان في ظل الرئيس بوتين ليست روسيا بعد تفكك الاتحاد السوفياتي، عسكريا على الاقل مصحوبة بتحركات دولية في اكثر من بقعة عالمية ودولية تسعى الى تثبيت مكانتها كقوة اساسية على قمة النظام الدولي، مع الولايات المتحدة والصين واي قوة اخرى صاعدة.

الوضع الاقتصادي الروسي لا يقارن بوضع الغرب اجمالا. لكنه افضل كثيرا من وضع اقتصاد الاتحاد السوفياتي السابق الذي فارق الحياة نهاية الثمانينات في القرن الماضي. بوتين يندفع الى الحرب لاعادة رسم توازنات جديدة في اوروبا تجعل من روسيا لاعبا رئيسيا في مقابل اللاعب الاميركي، وتحديد نظام امن وسلام جديد في اوروبا، ووقف توسع الحلف الاطلسي شرقا، وتحديد عدم ضم اوكرانيا الى صفوفه، وتفكيك وسحب البنى العسكرية الاطلسية في دول اوروبا الشرقية، اي تراجع الحلف الى حدود واطراف ما قبل انهيار الاتحاد السوفياتي وحلف وارسو.

لكن بوتين في وضع دقيق يشبه المأزق. التقدم الى الامام، اي الى الحسم العسكري، يعني المزيد من اراقة الدماء والتدمير والاراض المحروقة وحرب المدن والشوارع والعقوبات والحصار المالي والاقتصادي، بعدما جاءت الوقائع على الارض غير متطابقة او غير متناسبة مع التقديرات التي لم تلحظ مقاومة اوكرانية شديدة، ومشاكل لوجستية للقوات الروسية،



حرب بنهاية مكلفة.

” اوروبيا على عتبة نظام امني واقتصادي جديد“



يعطي بوتين وعدا او يطلق اشارة حاسمة بوقف الحرب طالما انه لم يحقق بعد ايا من اهدافه في اوكرانيا، ولا يمتلك بعد الاوراق التي تمكنه من فرض شروطه على اوكرانيا. لذلك، فان المفاوضات تراوح في مكانها تحت سقف منخفض للتوقعات المرتقبة، ووصلت عمليا، وبعد قليل على انطلاقها، الى طريق مسدود. اما شروط موسكو لوقف الحرب، فهي:

- انهاء هيمنة القوميين المتشددين على الدولة الاوكرانية.

- ضمان وضع محايد لاوكرانيا ونزع سلاحها.

- تخلي اوكرانيا والغرب عن فكرة انضمامها الى الحلف الاطلسي.

- الاعتراف بالسيادة الروسية على شبه جزيرة القرم، كذلك الاعتراف باستقلال الجمهوريتين الانفصاليين شرق البلاد.

- الحصول على ضمانات رسمية من الولايات المتحدة وحلف شمال الاطلسي بمنح توسع الحلف نحو الشرق، وعدم نشر اسلحة هجومية قرب الحدود الروسية، واعادة القدرات العسكرية والبنية التحتية للحلف الى الوضع الذي كان عليه في العام 1997 عندما تم التوقيع على القانون التأسيسي للعلاقات المشتركة والتعاون والامن بين روسيا وحلف "الناتو".

هذه الشروط لا تصلح في نظر اوكرانيا (وفي نظر الغرب ايضا) اساسا للتفاوض، وانما هي اقرب الى شروط استسلام، والاخذ بها يعني التسليم بخطة بوتين لاختضاع اوكرانيا ووضع اليد عليها عبر "رئيس حليف وتابع"، بعدما يكون زيلنسكي دفع ثمن الحرب والخسارة.

الرئيس الاوكراني زيلنسكي ايضا في مأزق. التراجع الى الوراء، اي القبول بالشروط الروسية لوقف الحرب، يعني انه كتب نهايته ونهاية اوكرانيا كدولة مستقلة ذات سيادة وطامحة الى التوجه غربا والانضمام الى الاتحاد الاوروبي والحلف الاطلسي. والتقدم الى الامام، اي الاستمرار في الحرب، سيكون مكلفا جدا على صعيد الخسائر البشرية والمادية، في ظل اسلوب تدميري يتبعه الروس واستعدادهم للمضي قدما مهما كلف الامر، وفي ظل موقف اوروبي واميركي غير كاف لوقف الهجوم الروسي. هذا الموقف اظهر كل دعم وتعاطف مع اوكرانيا، لكنه ما زال يحاذر المواجهة وخطر الانزلاق الى الحرب المباشرة مع روسيا. الاوروبيون يتفادون ضم اوكرانيا الى الاتحاد الاوروبي ويرون انها لا تستوفي شروط العضوية. والاميركيون لا يريدون اوكرانيا ان تنضم الى الحلف الاطلسي، ويتحاشون التورط

في اي موقف او اجراء يمكن ان يجر الى التدخل العسكري وارسال قوات الى اوكرانيا، والى ان يصبح الحلف الاطلسي طرفا في النزاع. النتيجة ان الحرب ستظل حربا بالوكالة بين روسيا وحلف الاطلسي عبر اوكرانيا وعلى ارضها، وان الحرب ستكون صعبة وطويلة، مدمرة ومكلفة، وستفتح مرحلة جديدة في العالم، وستعيد صياغة النظام الامني الاوروبي على اسس جديدة و"بالدم" مرة جديدة.

يعتبر الاوروبيون ان بوتين وجه ضربة موجعة وقاضية للسلام والاستقرار في اوروبا، وان عليهم ان يتعاشوا مع وضع جديد وان يعدوا انفسهم وخططهم لحرب طويلة ستحفر عميقا في وجدانهم وواقعهم، لأن بوتين ليس في وارد التراجع. والاسوأ هو الاتي مع اشتداد العمليات الحربية على الارض وعبثية المفاوضات بين اوكرانيا وروسيا التي لن توقف حربها الا بعدما تحقق اهدافها. فلا الوعود ولا التهديدات نجحت في ثنيه عن غزو اوكرانيا وتحقيق الاهداف التي حددها بوضوح.

بوتين ايقظ عند الاوروبيين هاجس حرب عالمية ثالثة كانت لتقع لولا الخشية من تحولها الى حرب نووية مدمرة. وذكرهم بادولف هتلر والغزو الالمانى لبولندا الذي كان شرارة الحرب



المحور الذي يبحث عنه الرئيس الروسي.

العالمية الثانية. الاوروبيون، مثل الروس، يخوضون معركة حياة او موت، واوكرانيا تشكل خط الدفاع الاول عن اوروبا في هذه المعركة. ولأن الوضع على هذه الدرجة من التعقيدات والخطورة، استيقظت اوروبا من سباتها ومعها حلف شمال الاطلسي، وامور كثيرة تحدث فيها ومعها للمرة الاولى في تاريخها:

* للمرة الاولى تتخذ المانيا اجراءات غير مألوفة وتسلك تحولا دراميا في السياسة الخارجية والدفاعية: تزود اوكرانيا الاسلحة المضادة للدبابات وصواريخ ارض - جو وتخرق مبدأ نقل الاسلحة الى مناطق النزاع الساخنة ما لم يكن هناك حليف لحلف الناتو يتعرض للهجوم، وتخصص ميزانية ضخمة بمئة مليار يورو لبناء جيش الماني قوي.

* للمرة الاولى تخصص دول الاتحاد الاوروبي نصف مليار اورو لتوفير اسلحة الى اوكرانيا، في اول اجراء اوروبي من نوعه لدعم عسكري خلال نزاع، تسبب في اول عملية لجوء ونزوح داخل اوروبا التي اعتادت على استقبال لاجئين من دول العالم الثالث.

* للمرة الاولى تتخلى دول محايدة مثل سويسرا وفنلندا عن حيادها، وتدعم كيبف بالسلاح او بالتضييق الاقتصادي على روسيا.

* للمرة الاولى ايضا، يقوم حلف شمال الاطلسي بنشر عناصر من قوة الرد التابعة له بهدف تعزيز قدراته الدفاعية والاستعداد للرد سريعا على اي تطور، ولتجنب اي توسع للنزاع الى اراضي الحلف في اتجاه بلدان البلطيق المحاذية او البلقان. ويواجه حلف الناتو ودوله الثلاثين، اختبارا غير مسبوق، مع دعمه اوكرانيا ضد الاعتداء الروسي والحرص في الوقت نفسه على عدم الانجرار الى مواجهة مباشرة مع روسيا.

اوروبيا امام لحظة حاسمة في تاريخها وخط فاصل زمني واستراتيجيا بين مرحلتين. حرب اوكرانيا ستكون لها تبعات عميقة على حياة الاوروبيين ونتائج جيوسياسية على القارة القديمة التي تفرغ طبول الحرب مجددا عند ابوابها، وينبغي عليها ان تصبح قوية وتحمي نفسها بنفسها، وان تراجع سياساتها وتحدث تغييرا جذريا وفي اتجاه اعادة بناء نظام امني وسياسي واقتصادي جديد.